تمهـيد

العروبة التى عرفناها من قديم ، وآزرنا نهضتها يوم قامت ، واستبشرنا بجامعتها يوم وُلِدت ، شيء آخر غير العروبة التى نسمع الآن « لفظها » من بعض الساسة والكُتَّاب ، فنسمع له رنيناً كرنين النقد الزائف .

أجل هناك عروبة ذات دلالة غريبة ، ومعنى مزور ، ومفهوم مجلوب من الخارج ليست له علاقة بواقعنا ولا بتاريخنا .

ومن حق أى عربى أصيل ، ومن حق أى مسلم مخلص أن ينفر من هذا التدليس ، وأن يعد القومية العربية بهذا التفسير الجديد حركة التفاف ماكرة خبيثة للقضاء على شخصيتنا وتاريخنا وإيماننا .. ومصالحنا القريبة والبعيدة !!

إن المحاولات ناشطة للإجهاز على الإسلام ، تارة بتسويغ الارتداد عنه عقيدة وشريعة ، وتارة بإحلال « العروبة » مكانه بعد تجريدها من أربطة الإيمان ووشائج التاريخ ، لتكون مفهوماً فارغاً ميتاً .. ثم افتعال يقظة عربية يلتف حولها المخدوعون ، ومن ثم نفقد كل ما ربحناه فى معارك التحرير خلال القرن الأخير ... وتتقلص ظلال الإسلام فى سكون .

أهذه هى القومية العربية التى يطنُّ النداء بها فى الآذان ؟ .

إننى ـــ كأى مسلم يحب العربية وأهلها ـــ أجزع من هذا الانحراف الثقافى والسياسى ، وألفت الأنظار إلى خطورة الفوضى الفكرية والاجتماعية التى أحدثها البعثيون والقوميون بهذا المسلك ، وأثر ذلك كله فى تضليل الأجيال التى كُتِبَ عليها ألا تسمع غير هذه الصيحات الكذوب .

قرأت جملة من المقالات ، والكتب التى تعرضت لموضوع « القومية العربية » وشعرت بالسخط على الطريقة الغريبة المريبة التى عولج بها هذا الموضوع ، بل

شعرت بأن من حق المؤمنين الصادقين أن يجفلوا من هذه المقالات والكتب ، وأن يرفضوا بقوة كل ما جاء بها من آراء وأحكام .

ذلك أن هؤلاء الناس أبرزوا « القومية العربية » على أنها وليد أجنبى احتضنته بيئات نافرة من الإسلام ، أو مبغضة له ، وأن هذا الوليد يستمد نماءه من الثقافات الدخيلة ، وتتسع دائرته على أنقاض مواريثنا الروحية والخلقية ، وتقاليدنا الاجتماعية والقانونية ، وأوضاعنا الاقتصادية والسياسية .

وتفسير القومية العربية على هذا الأساس نعده نحن استجابة صريحة للغزو الاستعمارى بكل ما يحمله فى طواياه من أحقاد وأطماع .

ونرى الوقوف فى وجهه ضرورة يمليها الإخلاص للعرب ، والحماس لحاضرهم ومستقبلهم ، والدفاع عن كيانهم المادى والمعنوى .

ولقد عجبنا أشد العجب لمؤلف [1] يقول : « وكان أول من بشَّر برسالة القومية بين العرب هم أبناء « الرعايا » أى المسيحيين الذين وجدوا فى القومية أداة صالحة ليس فقط للتخلص من السيادة العثمانية ، بل للخروج كذلك من حدود الدائرة الإسلامية إلى وسط أرحب حيث يستطيع المسلمون وغير المسلمين من العرب أن يذيبوا أنفسهم فى ولاء شامل » .

ويقول : كانت حملة « نابليون بونابرت » على مصر والشام من عوامل ضعف (الجامعة الإسلامية العثمانية) وظهور (القومية العربية) .

قَدِم الفرنسيون مزودين بمدنيتهم الحديثة التى تقوم على العلم والاختراع والحرية والمبادىء الديمقراطية ، وتقابلوا بهذا كله مع مدنية الأتراك فكانت الغلبة للمدنية الحديثة .

ويقول : أيقظ « نابليون » الشعور القومى العربى ، وبعث فكرة استقلال العرب عن العثمانيين .

ويقول : عملت الحملة الفرنسية على نهضة الثقافة العربية ، ثم أكملت هذا العمل

---

(١) الدكتور على حسنى الخربوطلى فى كتاب « القومية العربية من الفجر إلى الظهر » .

العظيم الجمعيات التبشيرية المسيحية . ونتج عن هذا كله اهتمام العرب بتراثهم القومى ، مما أدى إلى بعث القومية العربية !!

ويقول : وقد وجدت اللغة العربية موئلاً فى المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية ، وانتشر تعليمها بين المسيحيين أكثر من انتشارها بين المسلمين .

هذا التفكير المغشوش الهازل هو معنى القومية العربية عند بعض المؤلفين والصحافيين [1]، الذين تطفلوا على موائد البحث العلمى ، وأقحموا أنفسهم فى ميادين لا ناقة لهم فيها ولا جمل .

إن القومية العربية داخل هذا الإطار الأجنبى فى مبناه ومعناه شىء غريب على نفوسنا وعقولنا ، دخيل على ماضينا وحاضرنا ، خطير على ديننا ودنيانا .

وهى — بهذا المفهوم المبتدع — جسر يعبر عليه الاستعمار الغربى والشرقى ليعيث فساداً فى أرجاء حياتنا كلها .

وحسبه أن يستمكن من إقصاء الإسلام عن مجال التربية النفسية والتنظيم الاجتماعى ، وأن يملأ الفراغ الفكرى والروحى الناشىء عن هذا الإقصاء . بمبادىء مبهمة . وشهوات مُزوَّقة . وصيحات مجنونة . وفوضى ليس لها آخر .

إن العروبة التى قَبِلنا من سنين جامعتها .
وارتضينا من قرون لغتها وديبها .

وولدنا فى بيئتها . وغذُينا من ثقافتها .

هذه العروبة التى نحسها فى ظاهرنا وباطننا ، وآلامنا وآمالنا .. شىء يناقض كل المناقضة الأكاذيب المترادفة التى جاءتنا فى هذا العصر مقترنة باسم القومية العربية ، أو التى زحمت المفهوم الأجوف لهذا العنوان المحدث .

* * *

---

(١) يتابع ما ينشره عن مقومات القومية العربية الصحافيون الآتية أسماؤهم : الدكتور محمد مندور . الأستاذ كامل الملاخ . الأستاذ أحمد بهاء الدين . الأستاذ أنيس منصور .

الغِلّ على الإسلام ، والحرص على تنحيته جانباً مع فسح الطريق لكل فكرة أخرى قصد مشترك لهؤلاء الكُتَّاب الذين يتظاهرون بحب العرب وبعث مجدهم .

والله يعلم أىَّ شر يصيب العروبة لو انتصروا . إنها ستسقط حين ينجحون ، وتستخفى حين يظهرون ، وأى عروبة تبقى بعد انتزاع الإسلام منها .

إنها ستبقى دعوة بلا تاريخ ، ورسالة بلا مبادىء تشرف ، أو مستقبل ينصف .

واسمع إلى هذا الكلام فى محاولة فصل العروبة عن الإسلام (١) .

(هناك اتجاه خاطىء وشائع ، للأسف يسجن الثقافة العربية فى عمامة الشريعة الإسلامية ، صحيح أن الإسلام قد لعب ــ ولايزال ــ دوراً بناء فى الثقافة العربية ، إلا أنه ليس إلا عنصراً واحداً وسمة مميزة ، ونقطة رئيسية من نقط انطلاق الثقافة العربية إلى الأعماق العربية من ناحية ، وإلى الآفاق الإنسانية من ناحية أخرى) .

هذا كاتب يسخر من ارتباط الثقافة العربية بالشريعة الإسلامية ، ويريد إفهامنا أن للقومية العربية ينابيع كثيرة فوارة بالمعرفة ، وأن الاسلام أحد هذه الينابيع وحسب ...

ونحن نستغرب هذا الكلام ، لأن الإسلام هو الذى صنع الأمة العربية جسماً وروحاً ، ولأن الأمة العربية قبل هذا الدين كانت جملة قبائل تحيا فى جاهلية طامسة ، لا تعرف من الثقافة الإنسانية قليلاً ولا كثيراً .

ومع ذلك فالكاتب الجرىء يحدثنا عن ثقافة عربية انطلقت إلى الأعماق العربية ، وإلى الآفاق الإنسانية فيقول :

(والأعماق العربية هى هذا المحيط الواسع من الموج البشرى المتلاطم الذى عاش ــ ولايزال ــ حياة متصلة على الأرض العربية ، مجزّأة وموحَّدة . ونسجت منه الظروف والأحداث التاريخية وما فتئت تنسج تكويناً نفسياً وتراثياً مشتركاً ولغة عربية واحدة ومصالح اقتصادية آخذة فى التبلور .

أما الآفاق الإنسانية فهى هذه الثروة العامة التى تبادلت معها الثقافة العربية

---

(١) للكاتب لطفى الخولى من سلسلة مقالات له بالأهرام الغراء !!.

عمليات الأخذ والعطاء ، فقد أخذت الثقافة العربية عن الآفاق الإنسانية العديد من ثقافات الحضارات التى سبقتها كاليونان والرومان . فعرف العرب منذ فجر نهضتهم سقراط وأفلاطون وأرسطو . كما أعطت الثقافة العربية الآفاق الانسانية نتاجها العلمى المتوهج من خلال فلاسفتها وعلمائها أمثال يعقوب الكندى وابن خلدون وابن سينا وابن رشد وغيرهم من الذين مهدوا السبيل لعصر النهضة الأوروبية فمنتسكيو مثلاً بروح شرائعه امتداد متطور لابن خلدون . وديكارت فيلسوف حكّم العقل نما من خلال قراءات ابن سينا وابن رشد وهكذا) .

وظاهر أن الكاتب يصف بهذا الكلام الحضارة الإسلامية لاغير ..

فالرسالة التى نمت بها الأمة العربية حتى وسعت أجيالًا هائلة من البشر ، وعمرت أرضاً رحبة فى القارات الثلاثة هى الرسالة الإسلامية .

والثقافة التى جعلت العرب يشرفون على فلسفة اليونان ، وقوانين الرومان ، ويصقلون هذه ، وتلك ، ويضفون عليهما من رقيهم العقلى ما يجعلهم مشاعل وضاءة فى القرون الوسطى .. هى الثقافة الاسلامية .

ولولا الاسلام لبقى العرب الأولون قبائل تائهة فى صحراء الجزيرة ، ولما سجل لهم التاريخ إلا سطوراً تافهة فى زاوية مهجورة من صحائفه ..

فلماذا يقال فى معرض الاستهزاء : إنه لا يجوز حبس الثقافة العربية فى عمامة الشريعة الاسلامية ؟ هل نحبسها فى الحانات التى كان يسكر فيها امرؤ القيس أو فى أذناب الخيل التى كان يمتطيها عنتر بن شداد ؟؟ لماذا كل هذه الضغائن على الاسلام ! .

والحق أن هذا الكلام ــ إن أجدى شيئاً ــ فهو حجب العروبة الصحيحة عن أذهان بنيها وتضليلهم وسط متاهات تتخطفهم فيها زبانية الاستعمار .

والمتربصون بأمتنا الجريح إيقاظ لمآربهم معها ، فهم كلما خلخلوا لبنة من الكيان المعنوى لأمتنا سدوا مسدها ببديل من التقاليد الزاحفة مع غارة الاستعمار على تراثنا الروحى والمادى كله . وسوف يصلون على مرّ الزمن أو هم وصلوا إلى أمرين :

أولهما : تعطيل الاسلام عن أداء وظائفه النفسية والاجتماعية بعدما أفرغت منه نفوس الأفراد وصفوف الأمة ، وأضحى كلمات مأثورة لا صلة لها بالحياة والأحياء ، وحلّ محله الولاء لتراب الوطن حيناً أو لعصبية الجنس حيناً آخر .

والآخر : تعويق الاسلام أن يكون رباطاً عاماً فعالاً بين أبنائه فى المشارق والمغارب وإيثار الصبغة الجنسية عليه ، حتى تصبح الكلمة لها فى المشكلات السياسية والمؤثرات العالمية .

والإسلام هو الضحية فى كلتا الحالتين .
أتريد أن تعرف من الكاسب ؟.

إنه من الخير أن نسوق أولاً نماذج لتفكير البعث العربى أو القوميين العرب فى هذين الأمرين لتعرف الجواب .

يقول الدكتور عبد الرحمن البزاز :

(آن لنا أن نعالج أمرين آخرين هما : خطَر المزج بين القومية والدين فى العلاقات الدولية الراهنة كما نبصرها اليوم فى صلات دول العالم . وثانيهما توضيح المثالين اللذين كثيراً ما يردان لتبرير مزج الدين بالقومية ، وهما إسرائيل وباكستان .

فلننظر إلى الأمر الأول ، ولنفكر بمصيرنا نحن العرب لو التزمنا بهذا الرأى الذى يُسوِّى بين القومية والدين ، أو بالرأى الأكثر تطرفاً وهو الذى ينكر القومية من حيث الأساس ويقيم الدين وحده مقام القومية ، سنُخرج إذن تواً نحواً من عشر سكان مصر ، ونحواً من خُمْس سكان سورية ، ونحواً من نصف سكان لبنان من القومية العربية ، وسنخرج أيضاً نسبة لا يستهان بها من العراقيين والفلسطينيين والأردنيين والسودانيين ، كما سنخرج عدداً عظيماً من العرب المهاجرين فى الأمريكتين أو إفريقية أو فى القارّات الأخرى ، ممن لا يزالون يتحسسون قوميتهم العربية ، ويحتفظون بلغتهم العربية ، إنهم سيصبحون جميعاً خارج نطاق الأمة العربية وخارج نطاق القومية العربية ، لأنهم سيفتقرون إلى عنصر أساسى ، أو

العنصر الوحيد الأساسى فى رأى البعض للقومية وهو الدين الاسلامى .

وحين سنفقد هذه الملايين العديدة ستفرض هذه النظرية علينا اعتبار الهندى المسلم ، والصينى المسلم ، والروسى المسلم ، والفليبينى المسلم ، وكل مسلم فى آسيا أو إفريقية أو أوروبا أو أى جزء آخر من أجزاء المعمورة إخوة للعربى المسلم فى العراق أو فى مصر أو فى سورية أو فى غيرها من الأقطار العربية ، لا إخوة بالمعنى الروحى العام ــ إذ أنهم فى واقع الحال جميعاً إخوة ــ ولكن إخوة بالمعنى القومى الذى يوجب أن يكون لأبناء القومية الواحدة مصير سياسى واحد ، ومصلحة قومية نهائية واحدة ، وتفترض قيام ترابط وتضامن اجتماعى وسياسى بين أبناء هذه القومية الواحدة) .

وواضح أن الدكتور البزاز يريد ــ فى حقل السياسة العالمية ــ أن يقسم الأمة الإسلامية الكبرى قسمين : مسلمين أعاجم يلتحقون بأقوامهم ــ ويواجهون مستقبلهم السياسى والاجتماعى وحدهم ، ومسلمين عرباً ينضوون تحت لواء قوميتهم الخاصة ويشقون طريقهم فى الحياة مع إخوانهم من اليهود والنصارى العرب .

وهذا التفكير الهائل لم تعرفه الجماعة الإسلامية منذ خُلِقَتْ إلى اليوم .

وهو تهديم بعيد المدى للكيان الإسلامى كما يبينه القرآن الكريم وتقيمه السنة المطهرة ، وهذا التفكير قُرَّة عين الصليبية المغيرة وما واكبها من دعوات حمراء أو بيضاء تحاول الفتك بالإسلام وأمته .

وسيجد القارىء ردوداً مفصلة ــ فى هذا الكتاب ــ على ما انطوى عليه هذا التفكير من شبهات ، وإن كنا نسارع إلى إيضاح أن العوائق أمام الجامعة العربية المبتغاة لا تقل ــ إن لم تَزِدْ ــ عن العوائق أمام الجامعة الإسلامية .

وأن غير العرب فى نطاق القومية المزعومة أكثر من غير المسلمين [1] .

---

(١) إنهم يتساءلون : ماذا نفعل مع الأقليات الدينية إذا أقمنا وحدة إسلامية . ونتسائل نحن كذلك ماذا تفعلون بالأقليات الجنسية إذا أقمتم قومية عربية . إن الأكراد والبربر وحدهم أكثر عدداً من الأقليات الدينية فكيف لو حُسِبَ معهم جمهور كبير من السودانيين والمصريين الذين لا يرون أنفسهم عربا بالدم ؟.

وأن مركز الذين لا يدينون بالإسلام ـــ فى أى تجمع إسلامى ـــ وطيد يغبط عليه أصحابه فلا خوف عليهم قط .

وأن خلق هذه العوائق هو من تأثر كُتَّابنا للأسف بالغزو التبشيرى دون بصر ما بالواقع الذى سجلته القرون ...

إن المقصود ألا تقوم للإسلام دولة تحمل رسالته وتتبنى شعائره وشرائعه .. والحملة على قيام هذه الدولة فى الصعيد العالمى تقارنها حملة أخرى على قيمة الإسلام ذاته داخل كل دولة مستقلة وفق التشكيل الحديث للرقعة العربية .

فقد كان من مقتضيات هذه القومية الحديثة إبعاد الشريعة الإسلامية عن الحكم وإبعاد التعاليم الإسلامية عامة عن الحياة ، مع ترك الأبواب مفتوحة للقوانين والتعاليم الأخرى .

وعندما نتدبر النقول التى سقناها فى صدر المقدمة ـــ وهى صورة التفكير السائد ـــ نجد كل شىء أُعِدَّ لخنق الإسلام ، ثم مواراته الثرى ، أو إبقاء صورة شائهة لرفاته الخلو من الحياة ..

وعندما تنضب مشاعر الإعزاز للتعاليم المبعدة والشرائع المهدرة تنشأ علاقات احترام جبرى نحو ما حَلَّ محلها من تقاليد وقوانين .

وذاك سر انحناء كثير من أصحاب الأقلام والألسنة أمام النزعات الوافدة ، وإن كانت وليدة نِحَل أخرى تريد أن تقوم على أنقاض الدين المهزوم ـــ أعنى الإسلام ..

وإلا فما معنى هذا الربط المفتعل بين القومية العربية والتبشير المسيحى ، والغزو الفرنسى مع الإصرار البادى على نبذ الإسلام ظهرياً وحسم كل علاقة قريبة أو بعيدة به ؟ .

وإنى لأعجب من توقح نفر من الكُتَّاب على الإسلام وانكماشهم أمام أى دين آخر ولو كان الوثنية البرهمية ، أو الوثنية البوذية ..

إن هؤلاء الكُتَّاب الهازلين يغضون من مواقف رجل مثل جمال الدين الأفغانى له

آلاؤه على النهضات الحديثة فى ربوع الشرق أجمع ، ولا يستحون من إبراز اسم نكرة لخائن انضم إلى الفرنسيين وساعد على استبقائهم فى مصر ، ورحل معهم لما طُرِدوا من هذه البلاد ، لأنه كان يعلم يقيناً أن القتل جزاء أمثاله . فترى مؤلف القومية العربية يقول : « وكما ظهرت فكرة إجلاء الفرنسيين ظهرت فكرة الاستقلال حتى عن تركيا ، فتكوَّن وفد مصر بزعامة المعلم « يعقوب حنا » وغادر البلاد للمطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية .

ورغم أن المعلم « يعقوب » نفسه كان ممن مالأ الفرنسيين ، وكوَّن الفرق التى تعمل بزعامته تحت إمرتهم ، إلا أنه وضع مشروعاً للاستقلال عن تركيا ، وهى فكرة جديدة تستحق التسجيل » .

ما الذى يستحق التسجيل فى هذه الفكرة ؟

أن يمالىء المحتل الكفور رجل من أبناء مصر ، مهما كانت نِحْلته ، وأن يؤلف عصابات تستبقيه فى ربوع هذا الوادى المحروب ، ليضرب القاهرة بالقنابل ، ويدخل الجامع الأزهر بالخيل ؟

أهذا المسلك يستحق التنويه ، فيدفن ما يطوى عليه من خيانة وغدر على حين تطوى صحائف الأبطال من قادة العروبة الحقيقيين ، ورجالات الإسلام الكبار ؟

إن ذلك ما دعانا لإخراج هذا الكتاب فى حقيقة المجتمع العربى ، وبيان الدعائم العتيدة التى تهض عليها العروبة ، وتعتز بها أمة العرب فى القديم والحديث .

محمد الغزالى